

دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد.

The connotations of the City in the Novel (Smells of the City) by Hussein Al-Wad

علاوة كوسة، المركز الجامعي بركة، (الجزائر)، allaoua.koussa@cu-barika.dz

تاريخ إرسال المقال: 10-01-2022 تاريخ قبول المقال: 28-02-2022

الملخص:

يتناول مقالنا الموسوم ب: دلالات المدينة في رواية (روائح المدينة) لحسين الواد، إشكاليات المكان في المتن الروائي والدلالات العميقة المتنوعة للمدينة في نموذج روائي معاصر، بوصف المدينة مكوّنًا مكانيا أساسا في الرواية، و أحد أهمّ الأمكنة وأكثرها حضورا في الروائية العربية المعاصرة، منطلقا من إشكالية أساس وهي: ما دلالات المدينة في رواية (روائح المدينة)؟ لنستخلص في نهاية البحث أن للمدينة في هذه الرواية دلالات تاريخية، اجتماعية، دينية وثقافية مختلفة، كما تتوعدت أفضية المدينة بين منفتحة ومنغلقة، وبين مرغوبة ومرهوبة، وبين مقدسة ومدنسة، وبين ثابتة ومتحولة، وبين واقعية ومتخيلة وعجائبية أحيانا أخرى، وفي هذا التنوع حراك سردي وقرائني وتأويلي ودلالي رهيب.

الكلمات المفتاحية: المدينة، الرواية. روائح المدينة، حسين الواد

Abstract:

Our article, labeled: The connotations of the City in the Novel (Smells of the City) by Hussein Al-Wad, deals with the problems of place in the fictional text, and the various deep connotations of the city in a contemporary novel model, depicting the city as a spatial component chiefly in the blog targeted for reading and analysis, and one of the most significant and most existing places in the contemporary Arab and Western novel blog, and the most different in treatment and use, stemming from a fundamental problem, which is: What are the connotations of the city in the novel (The Smells of the City)? To conclude at the end of the research that the city in this novel has different historical, social, religious and cultural connotations, as the city's scope varied between open and closed, between desirable and dreaded, between sacred and profane, between fixed and variable, and between real and imagined and miraculous at other times, and in this diversity there is a terrible narrative, reading, hermeneutic and semantic movement

Key words : the City - the Novel - Smells of the City- Hussein Al-Wa

دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد.

مقدمة:

يحتلُّ المكانُ حيزًا هامًا في مجال المقاربات السردية المعاصرة للرواية العربية ، بوصفه مكونًا رئيسًا ، ذا مقولاتٍ عميقة ، ودلالاتٍ مختلفةٍ يكتسبها من خبرة الروائي ، ويكسبها النصُّ الروائيُّ أيضًا ، وتعدُّ "المدينة" أحدَ أهمِّ الأمكنة وأكثرها حضورًا في المدونة الروائية العربية والغربية المعاصرة وأشدّها اختلافًا في تناول و التوظيف فإذا كان حظُّ "المدينة" عظيمًا في المقاربات النقدية الغربية والعربية للنصِّ الشعري ، فإنَّ حضورَ المدينة في المتن الروائي لم يكن أقلَّ شأنًا ومقاربةً محايدةً لدى نقادِ الرواية والمهتمين بأمرها والمشتغلين على مكوناتها ، وجمالياتها ومقولاتها المتجددة عبر كلِّ نصِّ روائيٍّ يُحسن استحضرَ "المدينة" بوعيٍّ وعمقٍ وجمالية ، بعيدا عن النمطية والسطحية والابتذال.

تعدُّ رواية "روائح المدينة" للروائي التونسي "حسين الواد" ، من النماذج التي يُستحسن أن نمثّل بها لهذا الاستحضار الجمالي العميق لفضاء المدينة ، بكلِّ سياقاته التاريخية ، و مسيحاته الإيديولوجية ، ومرافقاته السياسية ، ومقولاته الاجتماعية ، وحفرياتِه في الذات الإنسانية ، وحيثياته الجمالية ، وإشاراته الفنية، حيث تحالفت كلُّ هذه المقاربات الواعية لفضاء المدينة في هذه الرواية لتأسر القارئ متحررا من الفهم النمطي الجاهز لمفهوم المدينة ، ولتستقرّه متأولا دلالاتها العميقة الأمانة بالحفر في طبقات هذا الفضاء المنفتح دلاليا ، المنغلق على مقولات لا يعلم تأويلها إلا الراسخون في فقه "المدن" الروائية كتابةً ونقداً، والعارفون بروائعها الحمالة للمنطوق به من مقولاتها المغيبيّة ، و للمسكوت عنه من إشاراتِ المستحضرة داخل النصِّ الروائي ، وهو ما سنحاول الخوض فيه من خلال هذه المداخلة ، آملين أن ندخل "المدينة" الحسينية" التي قال عنها صاحبها في عتبة صادمة مُقنَّبَل الرواية: " من ليس له مدينة كمدينتي لا يصلح له هذا الكلام".بمنهج تأويلي ، مستشكيلين: ما دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد وما تأويل مقولات المدينة في المدونة المدروسة؟.

المبحث الأول : المهاد النظري .

المطلب الأول : الرواية والمكان:

للمكان أهمية بالغة في النص الروائي، كغيره من النصوص الأدبية الأخرى ، حيث يقوم المكان في النص بوظيفة العمود الفقري¹ في جسد النص من حيث هو الأرضية التي تدور فيها الأحداث، وتتوزع عليها الشخصيات، بل يمكن عدّ "المكان هوية العمل الأدبي"² كله، لأنه يساهم في ترتيب الفعل

¹ شريط أحمد: الزلزال، تأويل الشخصيات والمكان، مجلة المساءلة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ع1، الجزائر ،1991، ص75.

² إبراهيم صالح: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، ط1 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، 2003، ص13.

دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد.

السردية، بشخصياته وأحداثه وأزمته بل يستحيل قيام أي عمل أدبي من غير عنصر المكان، لأن المكان في الرواية المعاصرة لم يعد مجرد أداء لوظيفة إشارية لمعنى من المعاني الثابتة أو "ديكورا" هامشيا لمشهد من المشاهد الحديثة، إنما صار عنصرا حكايا هاما قائما بذاته¹، له سلطته على الأحداث، والشخصيات والأفعال داخل النص، وعلى القارئ/ المتلقي أيضا، لأن للمكان مدلولاته الفكرية والنفسية والسياسية والتاريخية والاجتماعية أيضا، "وبعني المكان بالنسبة للإنسان أشياء متعددة، فهو المأوى والانتماء ومسرح الأحداث"² وكل ما يمكن أن يختزن جزءا هاما من ذاكرة الإنسان وتجاريه، وذلك على يقين من أن "المكان الحيز لا يمكن أن يعني شيئا كبيرا، وغنما المكان الذي يعني هو المكان التجربة"³، المكان الحدث، المكان الوقائع، المكان الذي يختزل فترات من عمر، ومراحل من حياة، لذلك عكف الكتاب والمبدعون على الاشتغال عليه وتأنيته في أعمالهم الأدبية بكل مكوناته التي تجعل منه مسرحا هادفا دالا، يؤدي وظيفته الأدبية كما تؤديها عناصر العمل الأخرى، "ويمكن القول إن المكان ليس مجرد وعاء خارجي أو شيء ثانوي، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متاخلا بالعمل الفني"⁴، بل ويتجاوز كونه وعاء إذا كان الناص واعييا بسلطة المكان وأدائه القوي داخل النص، وبمقدرته على صدارة العناصر الأدبية دلالة وتشكيلا، كما أن العلاقة بين الناص/الكاتب والمكان كمكون رئيس دال، من شأنها أن تنعكس على عناصر العمل الأدبي الأخرى فتتضافر معها لتشكل قوة/سلطة النص الكلية. "وفي ثنايا ذلك الحديث بين الذات المبدعة والمكان الخارجي تنمو لغة أخرى، وهذه اللغة تختزل ملامح شعرية المكان، حيث تهرب الأمكنة من حقيقته، ليبنى الخيال المكان الآخر، المكان اللغوي"⁵، وبذلك تحدد قيمة التعامل مع المكان، بوعي وعمق عوالم لغوية جديدة تعطي للمكان مفهوما جديدا مغايرا خاصا بكل مبدع/ناصر، "لأن المكان يبقى مفهوما ضروريا، فلا وجود ولا زمن ولا حركة ولا لون ولا ظل ولا أشياء إلا به"⁶.

إن الحديث عن المكان في أي عمل أدبي هو حديث عن العمق والدقة بعيدا عن المعنى السطحي فلم يعد المكان "الأرضية التي تتوزع على خارطتها الأحداث ولا هو الشكل البلاستيكي المبني من

¹ باديس فوغالي باديس: التجربة القصصية النسوية في الجزائر، ط 1، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2002، ص 107.

² ربابعة موسى: جماليات الأسلوب والتلقي (دراسة تطبيقية)، ط 1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008،

ص 74.

³ ربابعة موسى: المرجع نفسه، ص 74-75.

⁴ بوديبة إدريس، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط 1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة الجزائر، 2011، ص 188.

⁵ كحلوش فتيحة: بلاغة المكان، قراءات في مكانية النص الشعري، ط 1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2008، ص 09.

⁶ الدغمومي محمد: المكان القصصي، مجلة آفاق، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ع 11، 2012، ص 25.

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

الطوب والحجر والقصب (...) كما أنه ليس متكاً للفن الرديء الذي يجد في أجزائه مادة للوصف المركب وإنما هو ذلك الشيء الذي يستحيل الفن بدونه أن يسمى فناً¹، ومن ثمة فإن حسن التعامل مع "المكان" من حسن وعي أهميته ودوره في العمل الأدبي بعيداً عن استغلاله كتوشية وزخرفة لا بد منها في النص الأدبي، إذا كان للمكان كل هذه الأهمية البالغة في الأعمال الفنية عموماً، وفي الأعمال الأدبية كلها، فإن للمكان في النص السردي طابعه الخاص، إذ لم يعد "مجرد إطار للحوادث، بل بدأت في الظهور صورته العضوية وخاصة على مستوى نصوص السرد، بحيث صار معبراً عن حالة سردية شديدة الخصوصية في كل مرة يظهر فيها في السرد"²، وصارت للمكان وظائف متعددة داخل المتن يستحيل أن يؤديها مكون سردي سواه، لذلك عدّ "المكان واحداً من أهم مكونات النص السردي"³، فله مقولاته وخصوصياته وتأثيراته على شركاء السرد الآخرين كالزمن، واللغة والشخصيات. لذلك فقد فشل من الكتاب من "يعتم عن قصد صورة المكان ويقتصر على إشارات عابرة تدعو إليها الضرورة لإقامة الحكى"⁴ بعيداً عن الفنية في التعامل، والجمالية في الطرح والوعي في التعامل، لأنّ "العلاقة بين الرواية والمكان هي علاقة حتمية أو علاقة وجود، فالرواية بناء درامي متكامل يتمكن فيه الكاتب من خلق عالم تتفاعل فيه الشخص والأحداث والأماكن، والمكان يمثل مسرح الحدث"⁵، كما يرى ذلك علي عبد الرؤوف في كتابه 'مدن العرب في رواياتهم'، حيث وثقت الرواية العربية التجربة الإنسانية والحسّ المكانيّ كما نبهت إلى حالات تغييره أو تدهوره أو اندثاره في أحيان أخرى⁶، ذلك لأنّ "الروايات لها القدرة على الوصف المكثف للأماكن، سواء الحقيقية أو المتخيلة كما أنها تختبر التأثير العاطفي للأماكن والفراغات التي نعيشها، وتحظى فكرة رصد العلاقة بين الإنسان والمكان وتحليلها بنصيب وافر من الأطروحات والمعالجات في مجالات إبداعية مهمة مثل التصوير الفوتوغرافي والسينما والتصوير الفني، إلا أن العمل الروائي بمساحاته وتركيباته المعقدة يظل مجالاً رائداً يتميز سماته المنفردة في هذا الرصد"⁷

¹ النصير ياسين: الرواية والمكان، ط2، دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 2010، ص15.

² هيثم الحاج علي: الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2008، ص141.

³ هيثم الحاج علي: المرجع نفسه، ص40.

⁴ لحميداني حميد: بنية النص السردي، ط3، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2000، ص69

⁵ علي عبد الرؤوف: مدن العرب في رواياتهم، ط1، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، 2017، ص37

⁶ المرجع نفسه، ص20

⁷ المرجع نفسه، ص18

المطلب الثاني : الرواية والمدينة:

إذا كان للرواية علاقة وطيدة عميقة جدلية جمالية بالمكان عموماً ، فإن علاقتها بالمدينة لها طابع خاص جداً ، من حيث إن علاقة الرواية بالمدينة وعلاقة المدينة بالرواية هي علاقة تبادل وجود وتواصل مختلط وهي علاقة متناقضة ومتشعبة تتجاوز طرفيها لتضم طرفاً ثالثاً هو القراء سكان المدن ومن تلاقي وامتزاج هذه الأطراف الثلاثة على مستويات مختلفة ينتج بالضرورة وعي بالذات وبالمحيط وبالوجود نفسه ، ولذا أصبحت علاقة الروائي بالمكان علاقة جوهرية ، فالمكان يحتوي الزمان الماضي والجماعة الإنسانية والعلاقات المتشابكة بين أفرادها¹، وذلك "لأن الرواية نتاج علاقات تتفاعل في المدينة بكل ما تعنيه الأخيرة من مظاهر عمران ونمط حياة واختلاط بين البشر وانفتاح على الآخر ، فإن المدينة تبدو حاضناً لها من جهة وفضاءً لسردها من جهة ثانية، فضاء لأحيائها وأزقتها وشوارعها وحواريها وأحلام ساكنيها وحكاياتهم وشروط حياتهم وتفاعلهم وتآلفهم معا واغترابهم فيها وعنها ومواقفهم منها وكشفهم لجمالياتها وقبحها"²، لذا "تنتفض الأعمال الروائية لترصد أزمة المدينة العربية وتعيد اكتشاف الماضي أو تختبر الحاضر أو ترسم ملامح المستقبل من أجل تقديم الإجابات

عن تساؤلات مستمرة وملحة عن قيمة وهوية المكان وماهية الوجود الإنساني في الفضاءات العامة

والخاصة

بالمدينة العربية المعاصرة"³ ، ونما هذا الوعي لدى الروائيين العرب المعاصرين حين أدركوا أن "المدينة ليست مجرد بنايات وشوارع وأسوار وحوارٍ وميادين ولكنها أيضا روح خلاقة تتبلور في شكل تجليات متعددة منها اللغة والأسطورة والتراث و المقدس والفن والأدب"⁴، وهذا ما جعل بعض النقاد يتساءل: "ما المدينة الروائية؟ وكيف يمكن تشكيلها؟ وما السبيل إلى تصنيف الإدراك المكاني في الرواية"⁵ ، وهي أسئلة مشروعة يفرضها الاشتغال العميق للروائيين المعاصرين على تأنيث رواياتهم بمقولات المدينة فضاءً وعمارةً ، وتأنيث مدنهم الروائية بمقولات الذات الإنسانية بمختلف سياقاتها المحيطة وأنساقها الداخلية مظهر منها وما ضمير ، وحين تقرأ رواية "روائح المدينة" لحسين الواد ، ستكتشف على مدار فصولها اهتمامه بفن العمارة عبر الحقب التي مرت بها المدينة المذكورة عنده ، وهذا يكشف عن وعي منه بالعلاقة بين الرواية والعمارة، إذ

¹ المرجع نفسه ، ص 19

² المرجع نفسه ، ص 55

³ علي عبد الرؤوف : مدن العرب في رواياتهم ، ص 13

⁴ المرجع نفسه ، ص 21

⁵ المرجع نفسه، ص 37

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

"العمارة والرواية شكلان من أشكال التعبير الثقافي عن المجتمعات والإنتاج الإبداعي لها..حيث تشترك الرواية والعمارة في أنهما (كل بأسلوبه الخاص) يحملان مضمونا ثقافيا سياقيا يختلف من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر ومن كاتب أو معماري إلى آخر"¹ ، وهذا التداخل بين الرواية والعمارة بوصفها وجها من أوجه المدينة يجعل المتخصصين يطرحون أسئلة عميقة لعل أهمها: "ماهي الصورة الإدراكية من جهة الروائيين والمبدعين القاصين للعمارة والعمران؟ كيف يتعاملون مع عمارة وعمران وشخصية المكان أوالمدينة؟ وكيف تصبح الرواية مهما كان خيالها الجامح وسيلة للتوثيق التاريخي للغة المعمارية أو العمرانية التي ميزت حقبات بعينها في مكان ما؟ كيف تكون الرواية أداة نقدية للعمارة والعمران؟"² ، وسندرك في خاتمة الحديث عن هذه العلاقة الثلاثية أن "العلاقة بين المدينة والرواية

والعمارة بدت هامشية لم تختبر اختبارا عميقا ن ولعل التفسير الأكثر إقناعا لهذه الظاهرة هو طبيعة الفن الروائي بوصفه فنا سرديا لايجسد القيم البصرية بصورة مباشرة كما تجسدها اللوحة المرسومة أو التمثال المنحوت..وفي أغلب جامعات العالم العربي لم تقترب المناهج ولا الدراسات البحثية من العالم الروائي الشري"³

إن كانت هذه لمحة عامة عن العلاقات الفنية والدلالية الوثيقة بين الرواية والمدينة بعمرانها وعمارته، فإن حديثنا في هذا المقام سيكون حول رواية قاربت المدينة بحسّ جمالي أخاذ ، ويعمق قرائي جذاب ، وباحتواء سياقي موسوعي ، وإذا برزت روايات عربية من بلدان مختلفة احتفت بالمدينة وسحرها وعوالمها ، فإنه من تونس تبرز رواية روائح المدينة للكاتب حسين الواد ن الذي قدم في هذه الرواية مايشبه السيرة الذاتية للمدينة على مرّ الحقبات الزمنية المتعاقبة ، الحيز الزمني يبدأ من أربعينيات القرن الماضي ويتواصل إلى المرحلة الراهنة مروراً بمطلع الاستقلال وبالمرحلة البورقبيية وبمرحلة حكم المخلوع زين العابدين بن علي، والرواية أشبه ماتكون برحلة تاريخية عميقة لرصد تفاصيل التحولات التي شهدتها المجتمع التونسي على كافة المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية"⁴ ،لنكون فعلا روايةً جديرة بمقاربة تمثلاث المدينة بمختلف دلالاتها عبر حيز زمني كبير عرفت فيه تونس متغيرات كثيرة على مختلف الأصعدة وبدرجات مختلفة من الوعي بالذات الإنسانية في تمظهراتها الاجتماعية والسياسية والتاريخية.

¹ المرجع نفسه، ص 51

² المرجع نفسه ، ص 18

³ علي عبد الرؤوف : مدن العرب في رواياتهم ، ص 14

⁴ المرجع نفسه ص 180

المبحث الثاني: دلالات المدينة في رواية 'روائح المدينة' المطلب الأول : عتبات المدينة / المدينة الموازية :

توزعت مقولات المدينة في هذه الرواية على عتبات النص مثلما توزعت في متنه ، لذا حاولت في أول القراءة أن أتخس هذه المقولات على مستوى الخطاب العتباتي ، انطلاقاً من عنوان الرواية "روائح المدينة" والتي تعني في ما تعنيه أرواح المدينة وأناسها وسكانها ، "وعند الاشتراك والتفاعل تتراوح الروائح ، كأنها الشخوص تشق منها الروح تلو الروح فتخرج بكسر جمعها "أرواح" تنتشر في المسرح الروائح وتتشعر من صرفها الظهور .

وترقص الأشباح في مدينة الأوهام والرياء¹ ، وماالروائح على اختلاف مصادرها ومصباتها وتوجهاتها وتقبلاتها

سوى الأفراد بمختلف إيديولوجياتهم وأصولهم وتنوعهم وتمازجهم ودرجات تقبلهم من بعضهم ومن الآخر ، ليكونوا أولاً وأخيراً محكومين بعقد مواطنة ماداموا أبناء المدينة الواحدة بتاريخ مشترك ومستقبل واحد، ومثلما الروائح أنواع مختلفة إذا اقترنت بمقولات المتن ، فإنها تستند إلى ألوان مختلفة لشرائح مختلفة ، وتلك الألوان تجسدت في لوحة الغلاف (لوحة الغلاف لرسام شعبي من ري ودي جانيرو البرازيل) ، هذه اللوحة البرازيلية الأصل ، التونسية الإسقاط ، بألوانها المختلفة التي تتنازع في ما بينها التشاكل والاختلاف ، فبين الألوان الحارة والباردة يتجلى الصراع والتضاد البشري الكبير ، وبين الألوان الفاتحة الضاربة في الانفتاح والألوان القاتمة الموغلة في الغموض ينعكس الشرخ الكبير والتضارب المرير بين سكان المدينة فيما بينهم ومع أجوارهم الذين ظلوا يتكارهون معهم على حدّ مقولات الرواية ، ففي تعدد الألوان ن وتنوعها بين الزاهية الحارة والباردة الحزينة، تنوع روائح المدينة واختلافاتها واختلالاتها ، خاصة إذا دققنا في اللوحة وتحسسنا الرؤية الغبشة غير الواضحة لمعالم المدينة، خلل البنايات والبنىات ، والعقليات والأرواح فالروائح والحواس جميعاً.

إننا حين نتوقف عند عتبة أخرى من العتبات التي جعلها حسين الواد مداخلَ مختلفة وأبواباً متفرقة لندخل منها آمنين مرتبكين متأولين مختلي الموازين القرائية على غير ثبات في المقاربة والحددي ن إنها عتبة الإهداء ذات القوة المركزية الطاردة الجذابة ، فأما من حيث إنها طاردة فلأن حسين الواد يخبرنا بين أمرين أمرهما حلو وأحلاهما مرّ فإما أن تكون لنا مدن تشبه مدينته وإما ألا نكون معنيين بكلماته ، وهنا

¹ الواد حسين : روائح المدينة ، ط1 ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 2010 ، ص 14

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

نجد أنفسنا معنيين بقراءة الرواية والتعرف على مدينته لنقارن بعدها بين مدينته ومدينتنا وهنا كنا مرغمين على أن كلماته تعيننا في الاتجاهين والحالتين معا.

" من ليس له مدينة كمدينتي

لا يصلح له هذا الكلام"¹

لكأني به يفصل في أمر الانتماء من أول عتبه ، ويصرح لايلمح بهذا الإسقاط المكاني في الإهداء بأن المدينة لمن يعيها لأنها قفص أرواحنا، وشبهنا ، وصورة طبق أصل ذواتنا وأهوائنا وميولاتنا، فالأماكن كالمدن كائنات حية لا تقبل إلا حيا واعيا بها. فمثلما نعيش فيها ونمارس ديمومتنا من خلالها فعلينا أن ندرك أن "كل مدينة تولد فتمارس ثقافة خاصة بها كما أنها تكيف الأشياء والكائنات من حولها على أساس نمط حياتي تتميز به عن غيرها من المدن الأخرى"²

يعدّ التقديم الغيري ذي الطابع المقامي لصلاح الدين الشريف، الذي قدّم لنصّ بنصّ وتيها بتيه ومعجما قديما بمعجم أقدم معتق، ولاندري أبحسب ذلك له أم عليه؟ الذي عتبه قوالة أيضا وقد وسم تقديمه ب: (الروض الفواح في مقامات الروائح) قائلا: "والمكان مدينة ، أمكنة ولأماكن ، لا تعرف أهي في آخر المحيط كواق واق"³، مضيفا بأن "مدينة الروائح ياصاح مسرح أبطاله الروائح ، أبطاله أشباح. كيف تُرى الأشباح؟"⁴

لا أعدّ الاستهلال الذاتي للروائي حسين الواد عفويا أو بريئا خاليا من دلالات ومرام عميقة ، والاستهلالات فنون واستراتيجيات ، ومما استهل به الروائي نصّه في بطاقة تعريف وهوية بمدينته : "المدينتي هذه التي يحسدنا عليها جميع الأجوار يستكثرون اسم المدينة فيها ويزعمون أنها قرية مثل القرى التي يسكنون روائح آية في الغرابة والعجب ، روائح تنبعث وتعبق وتتضوع وتزكو وتنتشر وتنتأرجح وتسرح وتخطر وتسطم وتفوح وتعرج وتعجّ وتتأجج وتتوهج وتمرح وتتهادى وتقع من وفي وعلى أرضها وفضائها والسماء مرحةً أسيانة غضوبا قطوبا لعبوا طروبا مندفعة محتدمة متأودة مكسالا عبوسا مغناجا ضحوكا متمردة ثائرة جذلي متعجرفة معرودة مزغرودة نشوى في الصباحات والأصائل والعشايا"⁵، إنها مدينة الأشباح الليلية كما قال صاحب التقديم مادام ليل المدينة مختلفا ، "أما الليل في مدينتي هذه التي أورت صدور جميع الأجوار فلطائم

¹ الواد حسين :المصدر نفسه ، ، ص07

² إبراهيم حسن رزاق : المدينة في القصة العراقية القصيرة ، ط1 ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1984، ص 14

³ الواد حسين : روائح المدينة ، ص15

⁴ المصدر نفسه ، ص16

⁵ المصدر نفسه ، ص25

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

من المسك والفل والورد والقرنفل والزرعس والبنفسج والزعفران والبهار والعود والند والعنبر والعرار والسوسن والزنبق واللاس ومن أشياء أخرى زكية نكية مذهلة شهية مدوخة يقسم أهلها بأغظ الأيمان انها أكبر من الكلام¹

توقفت على عجل فني عند تلك الحواشي والهوامش السفلية المتعالية دلاليا والتي جعلها الروائي هومش شارحة للغة أهل المدينة ومعجمهم وماتعلق بعمارتهم وأدواتهم ، ففي الحواشي تتجلى المدينة لغة ودلالات ومعجما وتفاصيل، ومنها هذا الهامش الشارح لمقولة واردة في المتن (يقسم أهلها بأغظ الأيمان إنها أكبر من الكلام) وجاء في الهامش: "الراوي ولكل كلام رواته معلم نابه أدرك النباهة بعد فوات الألوان لم يفد ولم يستفد كان دائما يقول: أتساءل عن الشيء فلا اعرف ماهو وإذا لم أتساءل عرفت أنه موجود ، كان مولعا بالتنقيب في المعاجم والقواميس أما الهوامش فهي من المؤلف"² ، أما الهامش الثاني فجاء شارحا لكلمة 'البايات' الواردة في المتن، وجاء فيه أن "مفردها باي واللفظة تركية كانت تطلق على الوالي الذي حكم بلادنا إيالة عثمانية إلى سنة 1956 والعامية نسقط الألف وتقول 'بي' وتعتبر كل من حاشيته قيادا (ينطقون القاف مثل الجيم القاهرية)"³ ، ويشرح في حاشية أخرى قائلا: "الجليز خرف رقيق أو سميك تبلط به الأرضيات وتكسى به الجدران منه ماهو موحد اللون ومنه المزوق بالأشكال والألوان"⁴ ، ويتوقف بنا في حاشية أخرى شارحا كلمة 'صبايحية' التي يتداولها أهل المدينة فيقول: "مفردها صبايحي وهي لفظة تركية لدى أهل مدينتي على العون الذي يقول لرئيسه من أصحاب الوظائف 'صباح الخير سيدي' ويسعى بين يديه وهي تكاد تختص بالشرطة التي تجلب الناس للمحاكم"⁵ ويشرح في حاشية أخرى لهجات المدينة ممثلة في مفردة 'البيوعة' الشائعة بين الأهالي وهي كلمة مفردها بيوع وهو الواشي المخبر الذي يقوم بعمله ذاك مكرها أو متطوعا تزلفا للسلطة ورغبة في التقرب منها اللفظة مشتقة من باع يبيع"⁶ ، ونلاحظ أنها كانت جميعها حواشي شارحة وهوامش ذوات مقولات مرتبطة بالمدينة لغة ومعجما وتاريخا.

¹ المصدر نفسه، ص25

² المصدر نفسه ، ص26

³ الواد حسين : المصدر نفسه ، ص28

⁴ المصدر نفسه، ص28

⁵ المصدر نفسه ، ص 33

⁶ المصدر نفسه ، ص33

المطلب الثاني : فضاءات المدينة/أرواح المكان:

إنّ هذه المدينة هي رواية روائح ، وهذه الرواية هي مدينة أرواح ، حيث يحدثنا علي عبد الرؤوف عن روائح المدينة لحسين الواد واصفا إياها بأنها "مدينة مسكونة بالروائح النفاذة الميزة فتغدو الروائح أرواحا تحيل إلى مراحل آفلة وأمكنة مندثرة وذكريات تتوارى خلف أحزانها ، هنا يتحول الكاتب إلى عالم أنثروبولوجيا يسجل ويرصد القصة الإنسانية للمدينة ، التي يكونها من مجموعة من الفصول يناقش في كل فصل منها مكانا من تلك الأماكن الأكثر أهمية في حياة المدينة التي تتشكل خلالها وأحيانا بسببها التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية ن ومن الأماكن التي ينتقل الكاتب خلالها الجامع القديم ثم معاصر الزيتون وعوالمها ومنها إلى الأسواق ثم الحمامات وأيضاً حارة اليهود وكل هذه الأماكن تسرد سيرتها من حقبة الاستعمار إلى حقبة الاستقلال إلى اللحظة المعاصرة"¹، و يحدثنا حسين الواد عن مجموعة من فضاءات مدينته انطلاقاً من الجامع القديم من حيث لا يود الحديث عنه فيقول: "أنا لا أتحدث عن الجامع القديم الذي تتبعث من ميضاته تلك الرائحة لولم تكن بمدينتي ثلاثة جوامع أخرى لرائحة لها"² ، ويحدثنا عن الحبس المقدس المدنس بامتعاظ وفخر في آن فيقول: "أنا لا أتحدث عن روائح أخرى بمدينتي كانت تتبعث فيها من ناحية الحبس ، فلا أنا أحب الأحباس وروائحها ولا أهل مدينتنا يستطيعون الكلام عنها... كانوا لا يحبون حبسهم ولكنهم يعتزون به يعتبرونه دليلاً قاطعاً آخر على أن مدينتهم مدينة حقيقية لا قرية من القرى مثلما يزعم أجوارنا الذين يكرهوننا ويحسدوننا عليها"³ ، ومن الفضاءات العريقة في هذه المدينة الحمّام ، " فالحديث عن روائح الحمّام كالحمّام نفسه ليس الدخول إليه كالخروج منه... لكن بمدينتي قبل أن تصبح مدينة كاملة الأوصاف خمسة حمامات مشهورة كلها في كل حارة من حاراتنا الأربع حمام وفي حارة اليهود حمام خاص"⁴ ، وللقمامات روائح وأرواح ، و " أنا لا أتحدث لأنه لا يليق بمدينتي أن أتحدث عن روائح أخرى تتبعث منها تعبق بها دورها لأنها روائح زبالة وماء آسن متعفن تتحلل فيه النفايات كناسة وإفرازات

بشرية وحيوانية وجيف فئران وجربيع وكلاب وقطط وأرانب ودجاج يرمي بها الناس بعيداً عن دورهم في تلك المجاري الضيقة التي تتوسط الانهج والأزقة والشوارع"⁵، تماماً كما لا يجب التحدث عن فضاءات أخرى يحسن الحديث عنها ومنها مصانع الفخار ، " أنا لا أتحدث عن روائح الأدخنة الهائجة على مدينتنا

¹ علي عبد الرؤوف : مدن العرب في رواياتهم ، ص 181

² الواد حسين: المصدر السابق : ص 30

³ الواد حسين :المصدر السابق ،ص 311

⁴ المصدر نفسه ، ص 189

⁵ المصدر نفسه ص 123

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

من أفران حرق الفخار والآجر المنتشرة في شمالها الغربي وجنوبها شرقاً فأجوارنا الذين يكرهوننا كثيراً ما كان الواحد منهم يقول لصاحبه يوم السوق الأسبوعية بصوت مرتفع 'ياقليل الفهم يارأس الطفل أو قل لي في رأسك ياجورة أم ماذا' يريدون إغاظتنا¹

يحدثنا حسين الواد عن أماكن أخرى فتحت أبوابها للهو والمجون وقد انتشرت في أرجاء المدينة فواحة بالدنس والخطيئة كما يجهر بذلك إمام الجامع صارخاً "هاهم عباد الله ينشرون الموبقات ويفتحون للفروج والدبور البيوت تمارس فيها الرذيلة وتغتال الفضيلة ويزهق العفاف أمام الخاص والعام"² حيث كانت هذه البيوت مستورة في الخفاء متكئة متحجبة منزوية منكمشة على همها يدل الناس عليها بعضهم بعضاً في الخفاء وبالتلميح وإن كان لايجعل مكانها أحد³ ، غير أن المثير للدهشة هو افتخار أهل المدينة بالماخور عندما أصبحت مدينتنا مدينة أصبح فيها ماخور مشهور شهرة سوقنا الأسبوعية ن ليس لماخور مدينتنا مثل في أي مدينة من المدن يقول هذا الكلام أهلها كلما عرضوا لذكر الماخور وقصته⁴ ، وبهذه الأمثلة نشعر أن حسين الواد قد أتى على جل الفضاءات المتاحة في المدينة بذكرها والحديث عن تفاصيلها ومحاسنها ومساوئها أيضاً ، ليكتب بذلك سيرة مدينة فصولاً وأجزاء.

المطلب الثالث: السنة المدينية:

أولاً: لسان الدين بين التطرف والطرفة:

لا تكاد الرواية التونسية المعاصرة تخلو من مقولات التطرف الديني والعنف بكل أشكاله ، ويعد حسين الواد أحد هؤلاء الروائيين الذين حفروا في طبقات التطرف والعنف والدين بشيء من الذاكرة والاستشراف الواعي المؤسس ، فحينما يحدثنا عن الجوامع الثلاثة في أمثلة المذاهب الدينية بداية بالجامع القديم (السلفي) لتصير مذاهب أربعة شنتت الأمة ونثرتها طوائف وأحزاباً وكل حزب بما لديهم فخورون فرحون، فيقول " أنا لا أحدث مهما غضبت لمدينتي عن الروائع المنبعثة من ميضأة جامعها القديم فتلك روايح كثيرة شديدة الانتشار في بلاد الإسلام الواسعة روايح الفتها حتى لم تعد تتكرها الأنوف أخلاط من الماء والبول والرطوبة وأحياناً من التلظ والبراز تسطع قوية صلبة نفاذة ثقيلة قاسية في الأصباح والظواهر تنقطع من حدتها الأنفاس تدمع لها منها العيون روايح عطنة ننتة خبيثة فظة متطعة متعجرفة وفجة معريدة"⁵ ، وأما

¹ المصدر نفسه ، ص111

² المصدر نفسه ، ص97

³ المصدر نفسه ، ص96

⁴ الواد حسين :المصدر السابق ، ص95

⁵ المصدر نفسه ، ص26

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

الجامع الآخر على عهد الاستعمار فهو" الجامع الثاني عدا الجامع القديم إذ يرفض أهل مدينتي إدخاله في الحساب لأنه عندهم أزل من بنیان الأوائل فقد بنته دولة الاستعمار والحماية في مقايضة مشهورة لبناء بيعة بحارة اليهود كان المنافحون عن مدينتنا قبل بناء الجامع والبيعة وحتى بعد بنائها كثيرا مايقولون في المنافرات العديدة التي كثيرا ما كانت تحدث بينهم وبين أجوارهم سكان القرى القريبة.. هل استهوت قرية واحدة من قراكم يهوديا واحدا فاخترتها للسكن؟¹ ، فأما الجامع الآخر على عهد دولة الاستقلال فهو" الجامع الثالث عدا الجامع القديم دائما فقد بنته دولة الاستقلال والسيادة أول عهدها بالاستبداد بالبلاد أعلن عن بنائه وزير من وزرائها² ،وهنا يلمح بل يصرح إلى تسييس الجوامع ودور العبادة واستغلال الساسة للدين مثلما "أطلقت البلدية على الحي اسم حي النخيل وسمت الجامع الذي استغرق بناؤه بضعة أعوام'جامع الاستقلال' ، أما أهل مدينتي فقد سموه'جامع الاستقلال' مدة و'جامع الاستغفار' مدة وعندما نشطت حركة الملتحين سماه أنصارها 'جامع الغفران' أشاعوا أن أميرا طاهرا ورعا نقيًا تقيا من أمراء البترول تبرع

له من حر ماله الحلال بحفنة من آلاف الدولارات"³لاتخلو الرواية من الحديث عن التطرف الديني الذي شهدته تونس عبر تاريخها جراء هذا الاستغلال والاستغلال للدين وللشعب بطريقة بشعة ،وذلك "عندما عبقت الجوامع بروائح الملتحين وعمرت بها صدور الغلمان والفتية وتضوعت بكثير من الدور والأزقة وأنست طائفة منهم في جموعها العزم والقوة أقبلوا على التظاهر والترويع والترهيب والتهديد"⁴، والأخطر هو الالتفاف الشعبي حول هؤلاء المتطرفين" عندما شرعت دولة الاستقلال والسيادة في التضييق على الملتحين من رواد المساجد وتعقبهم انحاز أهل مدينتي إلى صف الملتحين"⁵،وأحلت فأهدرت الدماء ، حين" ارتمى عليه بعض بعض الملتحين جعلوا يدفعونه ويجذبونه خنقه أحدهم حتى برزت عيناه صاح به آخر: الحمد لله إذا مكن منك يا عدو الله اليوم ادخل الجنة بدمك"⁶ حينها بلغ الأمر إلى درجة التكفير ، حينما"شاهد الحاج نصر يقول لأصحابه في حانوته وقد ازرق وجهه من شدة الغضب: لم يبق إلا هذا ابني يكفّرني قال لامة إن لم تضعي الحجاب الذي أشير به لن أعترف بك أما...التفت إلي وقال إما أنت وأمثالك فقريبا تساقون إلى المشانق"⁷

¹ المصدر نفسه ، ص36

² المصدر نفسه ، ص37

³ حسين الواد:المصدر السابق ، ص39

⁴ المصدر نفسه ، ص46

⁵ المصدر نفسه ، ص46

⁶ المصدر نفسه ، ص48

⁷ المصدر نفسه ، ص46

ثانيا : لسانُ التاريخ/سيرة مدينة:

إن الرواية" تمكنت من إعادة رسم الأحياء القديمة مع ملامحها المعمارية والعمرانية التي محيت على وجه الأرض وإن قيمة الرواية أنها تكون أحيانا سببا في إعادة الاعتبار إلى الذاكرة التاريخية..ومن هنا فقد استعادت الأعمال الروائية ملامح مدن عربية وأماكن تاريخية لم يكن في مستطاعنا أن نراها دون هذا المستوى من الإبداع الروائي"¹، فكان جديرا بحسين الواد أن يعترف من خلال نصه هذا : "كانت مدينتنا في تاريخ قديم جدا مدينة عظيمة جدا دب فيها خراب عظيم جدا لم يبق فيها شيئا قائما ظلت تخرب وتخرب حتى مرت بها قبيلة موتورة خربها طول النشرد والترحال ظلت تلك القبيلة تظعن وتظعن حتى وقفت على خرائب مدينتنا فجعلت تتأملها تقيس

عليها خرابها وتعتبر وحطت فيها الترحال أقامت الجامع واختطت حوله المساكن"² ، لكانها قبيلة بني هلال أو قبيلة أسسها المهاجرون واتخذوا مسجدا كقباء مركزية دينية أسسوا عليها المدينة بعدها ، هذه المدينة التي احتلها العثمانيون احتلالا ناعما لتهبها لغيرها ممن تبعها بعث وقسوة "ففي مدينتي قبل أن تطأها وطأ خفيفا دولة البايات وتستبيحها دولة الاستعمار والحماية وتستصلحها فتمسخها دولة الاستقلال والسيادة وتدله بها حتى تطلقت وأدلت ولاحت كطالعة الشروق دولة العهد الجديد فيما يروج مفتريا المؤرخ الحزين بالضغط شماتة على الكلمات النابية إمعانا في إغاظتنا لنمعن في لعنه"³ ، ففي عهد البايات والتاريخ يحفظ ذلك "هبت الخيالة جرى العسس والحرس والصبايحية والهوادق والقوادة والبيوعة والمتملقون والمنافقون يسدون الطريق يملأون الفضاء يثيرون الغبار عبسوا تأهبوا للانقضاض لوحوا بالرماح والسيوف والبنادق والمدى والخناجر والهرارات والسلاسل والدبابيس"⁴ ، فكان حريا بأهل المدينة أن يقذفوا بالبايات إلى مزبلة التاريخ وهو ما أشارت إليه الرواية حين" بنى هذا الجامع ابن من أبناء البايات لم يعد احد يذكر له اسما ف"البايات" أبناء كالباطل كثيرون"⁵ ، إنه رفض للبايات وللاحتلال العثماني ومحو لهم اسما لارسما ، حين يقبر ويكنس

¹ علي عبد الرؤوف : مدن العرب في رواياتهم ، ص43

² حسين الواد : المصدر السابق ، ص 31

³ المصدر نفسه ، ص28

⁴ المصدر نفسه ، ص 33

⁵ المصدر نفسه ، ص32

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

العثمانيون وتخذ المدينة بعدهم ، كما تجلت لمساة الأندلسيين في معمارهم الذي لبسه جامع من جوامع المدينة ،إنه" جامع قديم تنبت في شماله الشرقي مئذنة ضخمة مهيبية أندلسية البنيان"¹
ثالثا : ألسنة السياسة/ محنة مدينة:

كان علينا دوما أن ننظر إلى"المدينة باعتبارها مركز انطلاق الأحداث السياسية والطبقية والتناقضات الكامنة فيها"² ، وقد نقلت إلينا رواية 'روائع المدينة' تأثير السياسي وانعكاسه على المجتمع بين عهد الاستعمار

والاستقلال"كنا في عهد دولة الاستعمار والحماية نسمع ونعرف ونعلم ونغضب ونسب ونشتم ونصرخ ونركل بأرجلنا وكنا في عهد دولة الاستقلال نسمع ونعرف ونتململ ونسكت نبلع السكين بدمها من كان يتصور؟ من كان يصدق؟"³ ، سياسة التعاضد التي فرضتها الدولة فأرهقت الرعية" كان المؤرخ الحزين قد اقسم على ألا يكلم أحدا أقسم على ذلك عندما قال في سياسة'التعاضد':أولى بهم أن يسموها سياسة التهديد"⁴، قاصدا بذلك سهولة حصول الدولة على أموال الرعية والغير بطريقة أو بأخرى مهما اختلفت التسميات فالاحتيال واحد مع سبق الإصرار والترصد ومن أمثلة ذلك أنه عندما" قبض الحرس الوطني على فلاحين من صغار الملاكين وساقهم إلى المحكمة متهمين بتخريب الثروة الوطنية كان قد مسك بهم وهم يقتلعون زياتين يمتلكونها قالوا:ملكنا ونحن أحرار فيه ، قال القاضي:الزياتين ثروة وطنية لايجوز الإضرار بها إلا بإذن"⁵ ، كما استغل السياسيون الوضع للاستيلاء على الممتلكات والتوسع العمراني بحجة توطين جوامع للعبادة"فالمدن وحدها هي التي يخرج عليها النازحون وأما الجامع فقد بني في قطب الهنشير تحيط به المتاجر والدكاكين ووراء المتاجر والدكاكين أقام الموسرون الجدد من خدم دولة الاستقلال والسيادة بيوتا فخمة في حدائق واسعة تفصل بينها شوارع مستقيمة فسيحة ذات أرصفة"⁶ ، وإن أغرب صورة للمسح السياسي في المدينة هو اختلاط اليمين باليسار وضبابية التوجهات السياسية وسراب التموقع والتحزب في بوتقة إيديولوجية قاتمة أذابت أرواح المدينة كما نقلته إلينا روائح المدينة فعندما"كان الصانع الذي اشرف على بناء الجامع قد تلطف واجتهد فنقش على رخامته فوق المدخل الرئيس حرفي"القاف" و"الباء" لكن اختلط عليه التدبير فجعل القاف

¹ المصدر نفسه ، ص28

² رزاق إبراهيم حسن : المدينة في القصة العراقية القصيرة ، ص105

³ حسين الواد :المصدر السابق ، ص 73

⁴ الواد حسين :المصدر السابق ، ص65

⁵ المصدر نفسه ، ص64

⁶ المصدر نفسه ، ص 38

دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد.

على اليمين والباء على اليسار ومن يومها أشكل اليمين و اليسار على اهل مدينتي ظلوا إلى اليوم يخلطون بينهما لولا ألطاف الله بهم لكان قد لحقهم من ذلك بلاء كثير¹ ، ومن صور إشكال اليمين واليسار على أهل المدينة مايتجلى في جلسات السياسيين متظاهرين ممثلين على رعيتهم حيث قال الوزير وكان يجلس على يمينه أو يساره السيد الوالي وعلى يمينه أو يساره رئيس لجنة التنسيق الحزبي وعلى يمين يمينه أو يسار يساره رئيس البلدية²

لم تخلُ الرواية من روائح لأرواح اجتماعية اجتاحتها حالات وظروف ورؤى مختلفة عبر أعصرها ،فنتحسس في روائح المدينة عادات وتقاليد وطبائع اجتماعية شتى ،فأما من العادات فقد كان أجدادنا الصالحون من فرط شغفهم بالذهب يعدون مايلكه المرء منه خاصة به حتى يقال غن طائفة منهم كانت غذا مات عزيز عليهم دفنوا معه ذهبه³ ، وصمدت العادات في وجه أعداء التراث والأصالة حيث "عندما أمسكت دولة الاستقلال والسيادة بتلابيب العباد وأعلن أربابها حربهم المشهورة على الفقر والتخلف والتأخر والجهل والتقاليد والعادات والأوهام والخرافات في خطب نارية أحرقوا بها الأخضر واليابس"⁴ ، كان هناك من يحافظ على هذه التقاليد والعادات ولايصدق بأنها خرافات كما ادعى المدعون ،ومن تلك العادات الأصيلة في تلك المدينة أنه "ما إن يستيقظ المرء حتى يشرب على الريق كأسا من الزيت وما إن يخرج المولود من بطن أمه ويرفع صوته بالصراخ حتى تغمص القابلة سبابتها في إناء به زيت تحلقه به بالزيت يضمخون الشعور ويدهنون الجلود ،إذا آلمتهم آذانهم قطروا فيها زيتا مدقى إذا أصابتهم الحمى دهنوا أجسادهم بالزيت"⁵

المطلب الرابع: أهواء المدينة / ريح الأنسنة:

إنّ للمدينة أهواء وأحاسيس وأرواح وروائح أيضا ، كما لأهلها وساكنيها ن ومنهم الراوي ومن حوله ن لذلك آثرت التوقف هنا لأتحسس مجموعة الأهواء والعواطف في تناقضاتها وتشابكها في الأرواح/الروائح التي بين صدور المدينة "الحسينية" العجيبة ، أما عن أهواء الراوي فكانت مزيجا غريبا حدّ التناقض ومنها قوله : "أنا لأتحدث عن هذه الروائح الخبيثة التي لم يخطر ببالي أنني متحدث عنها يوما يصيبني من تذكرها غضب وحقد ونقمة وخزي وعار فحديثي عن مدينتي يتجه أول مايتجه إلى الروائح الزكية

¹ المصدر نفسه ، ص35

² المصدر نفسه، ص 37

³ المصدر نفسه ، ص83

⁴ الواد حسين :المصدر السابق ، ص70

⁵ المصدر نفسه ، ص68

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

الذكية الفواحة"¹، كما تراوحت الأهواء بين مقدس ومدنس ، ومن ذلك ماظهر منها تجاه الجامع بعد هدمه حيث "امتلات قلوب كثيرة بالسخط

والندم والخوف والرهبنة والتوجس والهلوسة والارتياب"²، وما أغرب أن تجتمع أصداد الأهواء في موقف واحد وهو وجود الماخور بهذه المدينة حيث "لم يمض زمن طويل حتى أصبح أهل مدينتي سعداء بماخورهم أصبحوا يقولون في المناقرات الكثيرة التي كانت تحصل بينهم وبين جيرانهم سكان القرى القريبة يوم السوق الأسبوعية: هل في قرية من قراكم التافهة ماخور مثلما في مدينتنا التي تكروهون ماخور"³، وما أغرب الأهواء والعواطف في تدفقها بين حواف الأديان وحدودها الزئبقية الواهمة ، خاصة عندما تعشق الأرواح العابرة للديانات ، "قال المؤرخ الحزين وكان يرمى بتعشق حسناء من حسانهم كانت تدعى وداد أضمرت في قلبه نارا وسافرت فظل يجهد عمره لإخماد نياك الحريق: يذوب الجلود ولا يصفى اليهود"⁴، كما تنقل إلينا الرواية أهواء اليهودي تجاه المسلم في تعايش دافئ ، حين "يبكر يهودنا يوم الأربعاء مبتسمين ضاحكين مستبشرين يلقون بالتحية على كل مار يفركون كفا بكف يفتحون حوانيتهم الصغيرة الضيقة بمدخل حاراتهم"⁵

تحسّنا في الرواية عوالم وأسرار المرأة والأهواء الموقوتة الخرساء ، حيث "تتعلم البنت من بناتنا أول ما تتعلم كيف تروض النفس لتقهر الرجال وتشد على أعنتهم تعودها أمها أو أختها أو خالتها أو عمتها أو جدتها على كتمان ماتحب وإظهار الرغبة الشديدة في ما لا تحب وتشتهي تتعلم ضبط النفس والتحكم فيها"⁶، ومن أهواء المجتمع التي لا يسكتها أحد حين "استبد الغضب بالناس أصبحوا يصحون على النعمة وبنامون عليها يلقي الواحد منهم صاحبه أو جاره فيبادره بالتأوه ويقولك أكلنتي الأوجاع لم تبق في شينا أشعر أني سأنفجر"⁷ ، ولا أجمل من أهواء الطفولة ففي المدينة " روايح أحببتها طفولتنا عندما كان بعضنا يعتلي أكتاف بعض نتعلق بقضبان الطاقة الصغيرة ..لبريء التندر والضحك في الأكمام"⁸ ، وليس أغرب من الحبّ مع الآخر بروائح دينية" ما إن

¹ المصدر نفسه ، ص363

² المصدر نفسه ، ص 49

³ المصدر نفسه ، ص99

⁴ الواد حسين :المصدر السابق ، ص 81

⁵ المصدر نفسه ، ص 81

⁶ المصدر نفسه ، ص145

⁷ المصدر نفسه ، ص119

⁸ المصدر نفسه ، ص27

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

قال الإمام يجب على المؤمن إن يحب لغيره ما يحب لنفسه حتى نهض أحد المصلين. نظر حواليه أشار بيده إلى الإمام وقال: هذا غلط ياسيد إذا أحببنا لغيرنا ما نحب لأنفسنا وأحب لنا غيرنا ما يحب لنفسه كما تقول فعلى من ندعو؟ تبسم الإمام وقال: تدعون على إبليس اللعين¹ ن كما يمكن للكره بين الأنا والآخر أن يتجلى أيضا "عندما يشرع في الدعاء تقذف الشفاه بدعواتها وأمانيتها يدعو أهل مدينتي على أعدائهم وخصومهم على الدولة وعلى جيرانهم سكان القرى القريبة وعلى الذين يكرهونهم"²

ولروائع المدينة أهواء أو عندما تتأنس المدينة بكل مكوناتها وفضاءاتها وروائعها وأرواحها "مدينتي هذه التي يحسدنا عليها جميع الأجوار يستكثرون اسم المدينة فيها ويزعمون أنها قرية مثل القرى التي يسكنون روائح آية في الغرابة والعجب ، روائح تتبعث وتتعبق وتتضوع وتتركو وتنتشر وتتأرجح وتسرح وتخطر وتسطع وتفوح وتعرج وتعج وتتأجج وتتوهج وتمرح وتتهدى وتقع من وفي وعلى أرضها وفضائها والسماء مرحةً أسيانة غضوبا قطوبا لعوبا طروبا مندفعة محتدمة متأودة مكسالاً عبوساً مغناجاً ضحوكاً متمردة ثائرة جذلي متعجرفة معرودة مزغرودة نشوى في الصباحات والأصائل والعشايا"³ ، أما الليل في مدينتي مدينتي هذه التي أورت صدور جميع الأجوار فلطائم من المسك والفل والورد والقرنفل والنجس والبنفسج والزعفران والبهار والعود والند والعنبر والعرار والسوسن والزنيق واللاس ومن أشياء أخرى زكية ذكية مذهلة شهية مدوخة يقسم أهلها بأغلظ الأيمان أنها أكبر من الكلام"⁴

الخاتمة:

يجدر بنا ونحن نغادر "المدينة الحسينية" بروائعها وأرواحها وعوالمها أن نتوقف بالرصد مع سبق الإصرار القرائي عند نقاط ذوات أهمية بالغة منها :

1- تحالفت النصوص الموازية جميعها على القارئ ليفتك انتماءه القرائي وانتسابه التأويلي وحالته المدنية لهذه المدينة ، انطلاقاً من العنوان ،فصورة الغلاف ذات الألوان المتداخلة الدافئة الباردة ، وهي لرسام من ري ودي جانيرو البرازيلية تجعلك تبحت عن علاقتها بمدينة حسين الواد التونسية ، ليصدك الإهداء المربك المستفز الطارد الجذاب ، فالمقدمة الغيرية ذات الطابع المقامي لصالح الدين الشريف، الذي قدم لنصّ بنص وتيتها بتيه ومعجماً قديماً بمعجم أقدم معتق، ولاندرى أحسب ذلك له أم عليه؟

¹ المصدر نفسه ، ص43

² المصدر نفسه ، ص43

³ الواد حسين : المصدر السابق ، ص25

⁴ المصدر نفسه ، ص 25

دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد.

2- كان معجم حسين الواد في هذه الرواية معتقا من لغة موعلة في القدم والتشهير فلغة لمّاحة رامزة مقتّعة تومئ وضوحا لشدة غموضها ن وقد يكون ذلك انعكاسا لتوغل الروائي في عوالم الأدب العربي القديم وهو السائح نقديا بين أعلام الأدب العربي القديم من أمثال المعري والمنتبي وبشار وأبي تمام.

3- كتبت الرواية بحسّ مقامي واضح ، بأنفاسها الساخرة ، ومعمارها المسجوع ، ومقابلاتها المترصفة ، وأوصافها الدقيقة ، وأضدادها العميقة ، ولغتها الرشيقة ، وهو ما يشفع لمقدمها صلاح الدين الشريف في مقدمته المقامية المشفرة المبشرة بنص روائي مكثف.

4- تجلى أثر الأعلام القدامى ومصنفاتهم في رواية "روائح المدينة" كثيرا ، بخطاب مواز مبين ، ومن ذلك تلك الحواشي التي سيّجت المتن ن وكان فيها الروائي شارحا ومستطرذا وموضحا ، او حينما يضيق المتن بالمقولات ربما ، أو يعدل الروائي بين المتون والحواشي ليسند بعضها إلى بعض.

5- بدأ حسين الواد في سرده وصّافا ، وفي طرحه عرّافا ، إلى درجة أن ينسيك الوصفُ التفاصيل في بعض منعرجات النصّ الروائي الطويل ، فتشعر أن للروائح كما للأرواح حق في قاموسنا الوصفي المبدع.

6- طغت على مجريات الرواية الصبغة الدينية ، أماكن وشخصيات/ذوات ، وأفعال مختلفة ، انطلاقا من الجوامع التي كانت مراكز إشعاع فابتداع وتطرف في المدينة الحسينية ، فمرورا بالمقدسات الأخرى والمدنسات أيضا ، فالحوار بين الأديان والتعايش بين الطوائف بتلك المدينة خاصة بين اليهود والمسلمين.

7- بدا الاعتزاز بالمدينة واضحا واعيا عارفا أصيلا حالما مستشرفا ناقدا متقبّلا بناءً في عز الانتقاد والسخرية.

8- تعد رواية روائح المدينة سيرة ذاتية للمدينة ، عبر حقبات مختلفة ، من قبل الاحتلال الناعم للعثمانيين فعهدهم ، فعهد الاستعمار والحماية فعهد الاستقلال والسيادة إلى عصرنا هذا ن ومن النادر إن نجد رواية تحنّي بالسيرة الذاتية التاريخية المدنية لمدينة ما ، فلقد ألّفنا المدنّ في الأدب العربي فضاءات وأمكنة ومسارح للأحداث ن ولكن حسين الواد جعل المدينة بطلا ، فأنسناها واحتقّى بسيرتها الذاتية عبر الأعصر والأرواح والروائح.

9- جعلنا حسين الواد ندخل مدينته فنتشم روائحها ونتلبس أرواحها مقتّعين لا نكلّمنا إلا رمزا ، فصارت الرواية في بنياتها ومقولاتها إشارة بالتقويل أمارةً بالتأويل ، فلا نكاد نعلم لم التفتّع والتمنّع؟

دلالات المدينة في رواية "روائع المدينة" لحسين الواد.

10- تتوعد أفضية المدينة الحسينية بين منفتحة ومنغلقة ن وبين مرغوبة ومرهوبة ، وبين مقدسة ومدنسة ، وبين ثابتة ومتحولة ن وبين واقعية ومتخيلة وعجائبية أحيانا أخرى ، وفي هذا التنوع حراك سردي وقرائي وتأويلي ودلالي رهيب.

11- على قدر أهل وسكان وروائح وأرواح المدينة الحسينية الواقعية المتخيلة العجائبية التراثية المستقبلية الحاملة على قدر كل هذا فإن الحس الواقعي النقدي يتلبس الرواية ، فلا نشك للحظة واحدة في أن حسين الواد يتحدث عن واقعنا المدني المعيش بنقد عميق رشيق طليق ، في مغامرة واقعية نقدية بحل لغوية وسردية تشعرك بواقع.

12- نختم هذه الملاحظات بسؤال بريء جريء: أليست المدينة الوطن والجوامع المذاهب الدينية والزياتين الزراعة والفلاحة والأسواق التجارة والاقتصاد؟ أليست المدينة التي حدثنا بها حسين الواد هي مدينتنا جميعا وتصلح لنسخها ومقارنتها بكل المدن/البلدان العربية براهنها وتفاصيلها ورهاناتها؟

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم حسن رزاق : المدينة في القصة العراقية القصيرة ، ط1، دار الحرية للطباعة، بغداد 1984.
- 2- إبراهيم صالح: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، ط1 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، 2003.
- 3- بوديبة إدريس ، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط1 ، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة الجزائر، 2011.
- 4- الدغمومي محمد : المكان القصصي، مجلة آفاق، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ع11، 2012. 5- ربابعة موسى: جماليات الأسلوب والتلقي (دراسة تطبيقية)، ط1 ، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008.
- 6- علي عبد الرؤوف : مدن العرب في رواياتهم ، ط1 ، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، 2017.
- 7- فوغالي باديس: التجربة القصصية النسوية في الجزائر، ط1 ، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر ، 2002.
- 8- لحميداني حميد ،: بنية النص السردية، ط3 ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2000.

دلالات المدينة في رواية "روائح المدينة" لحسين الواد.

9- كحلوش فتيحة : بلاغة المكان، قراءات في مكانية النص الشعري، ط 1 ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2008.

10- النصير ياسين: الرواية والمكان، ط 2، دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 2010.

11- هيثم الحاج علي: الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، ط 1 ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2008.

12- الواد حسين : روائح المدينة ، ط 1 ، دار الجنوب للنشر، تونس ، 2010 .

المجلات:

13- مجلة المسألة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ع1، الجزائر، 1991. ص(99-111)